Journal of Alasmarya University
Volume 23, December 2014

مجلة الجامعة الأسمرية
المجلد الثالث والعشرون، ديسمبر 2014

التشبيه المقدّر في القرآن الكريم

د. محمد سليمان عبد الحفيظ*

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد،

فالقرآن الكريم هو كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، وهو البحر الذي لا يدرك غوره، والسراج الذي لا يخبو ضوؤه، بهرت بلاغته العقول، وظهرت فصاحته على كل مقول، أحكم الله صيغته ومبناه، ولفظه ومعناه، وهو عماد لغة العرب الذي تدين له في بقائها وسلامتها، والمعجزة الكبرى التي تحدى بها الرسول ﷺ أصحاب اللغة وأهل الفصاحة والبيان.

وعلى الرغم من كثرة البحوث والدراسات التي تناولت بلاغة القرآن، فلم يجرؤ أحد من الباحثين والدارسين على القول بأنه بلغ فيها الغاية القصوى، أو أنه أحصى جميع عناصر بلاغته، فهو كتاب لا تفنى عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد، يظل أبداً، رَحْب المدى، سخي المورد، شغلة الباحثين والدارسين جيلاً بعد جيل.

وبدأت فكرة هذا البحث، أثناء كتابتي لبحث سابق -لم ينشر بعد- حول التشبيهات المنفية في القرآن الكريم، فعند جمعي للآيات القرآنية التي اشتملت

* الجامعة الأسمرية.

على التشبيهات المنفية، وجدت أن من بين هذه التشبيهات، ما ترك فيها ذكر المشبه به، وأداة التشبيه، ووجه الشبه، أي: لم يذكر فيها من أركان التشبيه المعروفة سوى المشبه، فعزمت منذ ذلك الحين على فصل الآيات القرآنية التي اشتملت على هذا النوع من التشبيه عن بقية الآيات، وخصّها ببحث مستقل يتناول بنية التشبيه فيها.

وقد أطلقت على هذا النوع من التشبيه، اسم التشبيه المقدّر، نظراً لتقدير معظم أركانه، وهو نوع لم أجد له عند علماء البلاغة العربية تعريفاً أو توضيحاً، أو حتى وضع مصطلح له يميزه عن غيره من بقية أنواع التشبيه وأقسامه المختلفة.

فهم أطلقوا على التشبيه الذي حذفت منه أداة التشبيه اسم التشبيه المؤكد، أو التشبيه المضمر، وعلى الذي حذف منه وجه الشبه اسم التشبيه المجمل، وعلى الذي حذفت منه أداة التشبيه ووجه الشبه اسم التشبيه البليغ[1]، لكنهم لم يضعوا اسماً محدداً للتشبيه الذي حذف منه المشبه به لوحده، أو الذي حذف معه الوجه أو الأداة، أو هما معاً.

وعند ذكرهم لمراتب التشبيه، لم يشر معظمهم إلى هذا النوع من التشبيه، أو يضعوه في مرتبة من المراتب، سواء من عدها ثمان مراتب، أو من عدها ثلاثاً فقط، فمن عدها ثمان، جعل في المرتبة الأولى: ذكر أركان التشبيه الأربعة، وفي الثانية: ترك المشبه، وفي الثالثة: ترك الأداة، وفي الرابعة: ترك المشبه والأداة، وفي الخامسة: ترك وجه الشبه، وفي السادسة: ترك المشبه ووجه الشبه، وفي السابعة: ترك الأداة والوجه، وفي الثامنة: إفراد المشبه به بالذكر، واعتبر المرتبة السابعة والثامنة هما الأقوى في المبالغة، والمرتبة الأولى والثانية لا قوة لهما[2].

1- ينظر: في البلاغة العربية علم البيان، عبدالعزيز عتيق، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 1418 هـ - 1998 م، ص60 - 61، 68، 80.

2- ينظر: مفتاح العلوم، السكاكي (أبو يعقوب يوسف بن محمد)، حققه وقدم له وفهرسه عبدالحميد هنداوي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1420هـ - 2000 م، ص464، والإيضاح في علوم البلاغة، القزويني (جلال الدين محمد بن عبدالرحمن)، تحقيق ودراسة عبدالقادر حسين، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 1416 هـ - =

أما من عدها ثلاثاً، فقد جعل في المرتبة الأولى: ترك الأداة والوجه، وفي الثانية: ترك أحدهما فقط، وفي الثالثة: ذكر الأداة والوجه معاً، واعتبر المرتبة الأولى هي الأقوى في المبالغة، تليها الثانية، ثم الثالثة[3].

وقد أشار البابرتي في شرح التلخيص، إلى أن القزويني قد ترك القسمة العقلية بعدم ذكر ما حذف منه المشبه به فقط، أو هو مع الأداة، أو هو مع الوجه فقط، وعلل ذلك بعدم جواز حذف المشبه به إذا لم يفهم التشبيه[4]؛ أي أن حذف المشبه به لوحده، أو مع غيره جائز عند البابرتي إذا فهم التشبيه أو دلّ عليه دليل.

وخالف السّبكي في شرحه للتلخيص، ما ذهب إليه صاحب المفتاح، وصاحب تلخيص المفتاح، في عدم إدراجهما ما حذف منه المشبه به لوحده، أو مع الوجه، أو مع الأداة في إحدى مراتب التشبيه، فقد أوصل هذه المراتب إلى ثماني عشرة مرتبة، وهي القسمة الممكنة، وجعل في المرتبة الخامسة عشر، ما حذف فيه المشبه به، وأداة التشبيه، ووجه الشبه، ومثل له بقولك: زيد، في جواب من قال: من يشبه الأسد؟ وأشار إلى عدم صواب ما ذهب إليه القزويني وغيره من علماء البلاغة، في حصرهم مراتب التشبيه في ثماني مراتب فقط، وذلك لعدم اعتبارهم حذف المشبه به، توهماً منهم أنه متعذّر، وليس كذلك[5].

=

1996 م، ص303 - 304.

3- ينظر: المصباح في علم المعاني والبيان والبديع، ابن الناظم (أبو عبد الله بدر الدين بن مالك)، حقق الكتاب وقدم له بدراسة في تاريخ البلاغة عبدالحميد هنداوي، منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422 هـ - 2001 م، ص170، والإشارات والتنبيهات في علوم البلاغة، الجرجاني (محمد بن علي بن محمد)، تحقيق عبدالقادر حسين، مكتبة الآداب، القاهرة، 1418 هـ - 1997 م، ص180.

4- ينظر: شرح التلخيص، البابرتي (أكمل الدين محمد بن محمد)، دراسة وتحقيق محمد مصطفى صوفية، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ط1، 1392 هـ - 1983 م، ص535.

5- ينظر: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، السّبكي (بهاء الدين أبو حامد أحمد بن علي)، تحقيق خليل إبراهيم خليل، منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422 هـ - 2001 م، 231/3 - 233.

ولم يضف دارسو البلاغة في العصر الحديث -على حد علمي- شيئاً عما جاء في كتب البلاغة العربية القديمة، بشأن التشبيه المقدّر، الذي لم يذكر فيه المشبه به، وأداة التشبيه، ووجه الشبه، يستثنى من ذلك دارسان:

الأول: عبدالرحمن الميداني في كتابه البلاغة العربية، حيث ذكر نوعاً جديداً من أنواع التشبيه لم يذكره القدماء، أسماه التشبيه المكنّى، قال عنه: «هو تشبيه مضمر لم يذكر فيه لفظ المشبه به، وإنما ذكر فيه بعض صفاته، أو بعض خصائصه، أو بعض لوازمه القريبة أو البعيدة كناية عنه، وأصله تشبيه بليغ، إلا أنه بحذف المشبه به والكناية عنه بما يدل عليه من صفاته، أو خصائصه، أو لوازمه، صار أدق وأبلغ وأكثر بعداً عن التعبير المباشر»[6].

ويتفق التشبيه المكنّى مع التشبيه المقدّر، في أن كلاً منهما لم يذكر فيه المشبه به، وأداة التشبيه، ووجه الشبه، ويختلف عنه في كون التشبيه المكنّى يشترط فيه ذكر بعض صفات المشبه به، أو بعض خصائصه، أو بعض لوازمه، كناية عنه، في حين أن التشبيه المقدّر يكتفى فيه بوجود ما يدل على المشبه به، حتى وإن كان من سياق الكلام، أو من لفظ المشبه، وعليه فإن التشبيهات المقدّرة في الآيات القرآنية موضوع البحث، لا تدخل في إطار التشبيه المكنّى، ولهذا فإن صاحب كتاب البلاغة العربية، لم يتعرض لها أو يستشهد بها عند توضيحه للتشبيه المكنّى، وإنما مثل له بأمثلة تختلف عما في هذه الآيات من تشبيه.

الثاني: عبدالعظيم المطعني في كتابه خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، حيث استشهد بأربعة نماذج من نماذج التشبيه المقدّر في القرآن الكريم، عند تناوله لموضوع التشبيه السلبي في القرآن الكريم، وعلّق عليها بقوله: «ومع هذا الحذف لثلاثة من أركان التشبيه، لم يسمِّ الباقي بعد الحذف استعارة، والبيانيون يطلقون على ما كان شأنه كذلك: استعارة بالكناية، لكنهم لم يقولوا هذا فيها؛ أي: في هذه الأساليب، بل أبقوا التعبير على أصله من التشبيه ... وهذا لون من التشبيه لم نجده

6- البلاغة العربية، عبدالرحمن بن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط1، 1416هـ 1996م، 2/204.

إلا في القرآن الكريم، فهو خاصة من خصائصه لا جدال فيها»[7].

وعلى الرغم مما قاله صاحب كتاب خصائص التعبير القرآني، فإني لم أقف على أحد من علماء البلاغة العربية، قد استشهد بهذه النماذج القرآنية موضوع البحث، على قضايا مبحث التشبيه، وإنما كان استشهادهم ببعض منها، على قضايا تندرج تحت علم المعاني، مثل: وجوه الحذف[8]، أو الاختصار[9]، أو أغراض حذف المسند[10]، أو الإضمار على شريطة التفسير[11]، أو الحذف الوارد على شريطة التفسير[12].

وقد فضَّلت مصطلح التشبيه المقدّر على التشبيه المضمر، خوفاً من أن يلتبس ما نحن بصدده بالتشبيه المضمر الأداة. والمقصود به التشبيه المؤكّد، أو التشبيه المضمر في النفس. والمقصود به الاستعارة المكنية.

أما تخصيصه بالقرآن الكريم، فلرغبتي في البحث في قضايا بلاغة القرآن، ولكون الأسلوب الذي جاء به هذا النوع من التشبيه في القرآن لا وجود له خارج القرآن في كلام العرب، فهو أسلوب تميّز به القرآن الكريم، ومن ثم فهو وجه من وجوه بلاغته.

ولكي تتضح معالم بنية هذا النوع من التشبيه، فإنه لا بد من تناوله بالشرح

7- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، عبدالعظيم إبراهيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1413هـ - 1992م، 2/274 - 275.

8- ينظر: كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، العسكري (أبوهلال الحسن بن عبدالله)، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط2، د. ت، ص188.

9- ينظر: مفتاح العلوم، ص391.

10- ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، ص115.

11- ينظر: المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر، ابن الأثير (أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد)، قدمه وعلق عليه أحمد الحوفي. وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ط2، د. ت، 2/275.

12- ينظر: كتاب الطراز، المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، العلوي (يحيى بن حمزة بن علي)، مراجعة وضبط وتدقيق محمد عبدالسلام شاهين، دار الكتب العملية، بيروت، ط1، 1415 هـ - 1995م، ص248.

والتوضيح والتقدير من خلال النماذج القرآنية التي جاء فيها، استناداً على ما جاء في كتب تفسير القرآن الكريم، وعلى ما تقرّر من قواعد البلاغة العربية، وذلك قبل استخلاص النتائج.

النموذج الأول

قال الله تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [فاطر: 8].

(أفمن) مثلها (أمن) و(أمّن) و(أومن)، هي في الأصل (من)، لحقت بها هذه الحروف للاستفهام، وأصل الاستفهام الهمزة، وألحقت بها هذه الحروف لزيادة التقرير والتوكيد، وقد وردت (أفمن) في القرآن على ستة عشر وجهاً؛ ثلاثة في حق الله تعالى، وثلاثة في ذكر الرسول ﷺ، وخمسة في شأن الصحابة ﷺ، واثنان في تشريف المؤمنين، وثلاثة في توبيخ الكافرين، منها التي في هذه الآية، والتي جاءت في بيان كمال ضلال الكافرين[13].

والمقصود بقوله: ﴿زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ « شبه عليه عمله فرأى سيّئه حسنا »[14]؛ أي: موّه عليه عمله القبيح من الإشراك بالله وارتكاب المعاصي فرآه حسناً، فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه نزل في أبي جهل ومشركي مكة، وروي عن غيره أنه نزل في أصحاب الأهواء والبدع[15].

وقد ذكر القرطبي أربعة أقوال في هذا القول: « أحدها: أنهم اليهود والنصارى والمجوس، قاله أبو قلابة، ويكون (سوء عمله) معاندة الرسول ﷺ،

13- ينظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروز آبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب)، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت، د. ت، 47/2 - 48.

14- معاني القرآن، الفراء (أبو زكرياء يحيى بن زياد)، تحقيق ومراجعة محمد علي النجار، دار السرور، د. م، د. ت، 366/2.

15- ينظر: تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل، البغوي (أبو محمد الحسين بن مسعود)، إعداد وتحقيق خالد عبدالرحمن العك، ومروان سوار، دار المعرفة، بيروت، ط4، 1415 هـ - 1995م، 565/3.

الثاني: أنهم الخوارج؛ رواه عمر بن القاسم فيكون (سوء عمله) تحريف التأويل، والثالث: الشيطان؛ قاله الحسن، ويكون (سوء عمله) الإغواء، الرابع: كفار قريش، قاله الكلبي، ويكون (سوء عمله) الشرك ... والقول بأن المراد كفار قريش أظهر الأقوال»[16].

والمعنى في هذا الجزء من الآية: أفمن موّه عليه عمله، وصور له عمله القبيح من الشرك وارتكاب المعاصي في صورة حسنة، فغلب هواه على عقله، وجهله على علمه، حتى انقلبت عنده الحقائق، فرأى القبيح حسناً، والحسن قبيحاً، كمن ليس كذلك ممن هداه الله إلى الإيمان والعمل الصالح، فرأى الحسن حسناً، والقبيح قبيحاً، فتبع الحسن، وأعرض عن القبيح، وما ذلك إلا بمشيئة الله ﷻ، فهو الذي بيده أسباب الإضلال والهداية.

والتشبيه في هذا الجزء من الآية، منفي بالاستفهام الإنكاري في (أفمن) وذلك لنفي المساواة أو المشابهة بين من صور له عمله القبيح من الشرك وارتكاب المعاصي بصورة رآها حسنة، ومن هداه الله إلى الإيمان وعمل الخير، ورأى الأمور على حقيقتها، وهو تشبيه ترك فيه ذكر المشبه به، وأداة التشبيه، ووجه الشبه، فالمشبه هو من زين له سوء عمله فرآه حسنا، والمشبه به وأداة التشبيه، محذوفان، تقديرهما: كمن لم يزين له سوء عمله، وهداه الله لمعرفة الأشياء على حقيقتها، دل عليهما ما جاء في هذا الجزء من الآية، أما وجه الشبه الذي نفى الله ﷻ المساواة أو المماثلة فيه، فهو أيضاً محذوف، تقديره: في التمييز بين الحق والباطل والخير والشر.

وذكر المفسرون تقديرات للمشبه به، وأداة التشبيه، هي متقاربة في دلالتها، وذلك في إطار تقديرهم للخبر المحذوف، منها: «كمن استقبحه واجتنبه، واختار الإيمان والعمل الصالح»[17]، ومنها: «كمن لم يزين له بل وفقه حتى عرف الحق

16- الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد)، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1421 هـ - 2000م، 14/284.

17- تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود (العماد محمد بن محمد بن مصطفى) دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط4، 1414 هـ - 1994 م، =

واستحسن الأعمال واستقبحها على ما هي عليه»[18]، ومنها أيضاً: «كمن هداه الله»[19].

ويطلق معظم البلاغيين على هذا النوع من الحذف، اسم: إيجاز بالحذف، ويعرِّفه عبد العزيز عتيق بقوله: «هو ما يحذف منه كلمة أو جملة أو أكثر مع قرينة تعيّن المحذوف، ولا يكون إلا فيما زاد معناه على لفظه»[20]، ويقول عنه ابن الأثير: «أما الإيجاز بالحذف فإنه عجيب الأمر، شبيه بالسحر، وذاك أنك ترى فيه ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون مبيناً إذا لم تبيّن، وهذه جملة تنكرها حتى تخبر، وتدفعها حتى تنظر، والأصل في المحذوفات جميعها على اختلاف ضروبها أن يكون في الكلام ما يدل على المحذوف»[21].

أما جملة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ فبالإضافة إلى دلالتها على المحذوف، فهي على رأي طنطاوي «تعليل لسببية التزيين لرؤية القبيح حسنا»[22]، وعلى رأي ابن عاشور «تقرير للتسلية، وتأييس من اهتداء من لم يخلق الله فيه أسباب الاهتداء إلى الحق من صحيح النظر، وإنصاف المجادلة، وإسناد الإضلال والهداية إلى الله، بواسطة أنه خالق أسباب الضلال والاهتداء، وذلك من تصرفه تعالى بالخلق، وهو سر من الحكمة عظيم لا يدرك غوره»[23].

=

144/7.

18- تفسير البيضاوي المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي (ناصر الدين أبو سعيد عبد الله)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1408 هـ - 1988 م، 268/2.

19- تفسير القرآن الجليل المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي (أبو البركات عبد الله بن أحمد)، دار الكتاب العربي، بيروت، د. ت، 113/3.

20- في البلاغة العربية، علم المعاني، عبدالعزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1974 م، ص195.

21- المثل السائر، 268/2.

22- التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998م، 325/11.

23- تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، د. =

النموذج الثاني

قال الله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ [هود: 17].

البيّنة: الدلالة والحجة الواضحة عقلية كانت أو حسية، وتجمع على بيّنات[24]، والفعل يتلوه بمعنى يتبعه، فهو من التلوّ وليس من التلاوة.

وقد اختلف المتأولون في المقصود بقوله: (أفمن)، فقالت فرقة: المقصود بذلك المؤمنون بمحمد ﷺ، وقيل: المقصود محمد ﷺ، وقيل: المقصود بذلك محمد ﷺ والمؤمنون جميعاً، كما اختلفوا في المقصود بـ(البينة)، فقيل: القرآن، وقيل: محمد ﷺ، وقيل: ملك وكّله الله بحفظ القرآن يحتمل أن يكون جبريل، وقيل: لسان النبي ﷺ، وقيل: علي بن أبي طالب، وقيل: الإنجيل، وقيل: القرآن، وقيل: إعجاز القرآن، وقد ترتب على ذلك تعدد احتمالات عود الضمائر، الأمر الذي أدى إلى تعدد معاني الآية الكريمة[25].

والمعنى الذي أرجحه لهذا الجزء من الآية: أفمن كان على حجة واضحة وبرهان ساطع من عند الله ﷻ، اهتدى بهما إلى الحق وآمن به، ويتبعه شاهد يؤكد صدق وصحة هذه الحجة وهذا البرهان، وهو القرآن الكريم وما فيه دلائل الإعجاز، ومن قبله كتاب التوراة مؤتماً به في الدين، ورحمة على من أنزل عليهم، كمن ليس كذلك ممن لا حجة له ولا برهان ولا شاهد.

والتشبيه في هذا الجزء من الآية منفي بالاستفهام الإنكاري في (أفمن)، وهو

= ت، 264/22.

24- ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي (محمد مرتضى الحسيني)، تحقيق عبدالفتاح الحلو، راجعه مصطفى حجازي، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، 1406 هـ - 1986 م، مادة بين.

25- ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية (أبو محمد عبد الحق بن غالب)، تحقيق عبد السلام الشافي محمد، منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422 هـ - 2001 م، 157/3 - 158.

استفهام إنكاري « ينطوي على نفي معقولية وإمكان التسوية بين المؤمنين والكافرين، وتعليل ذلك، بأن الأولين قد أدركوا الحقيقة الإلهية، وصاروا منها على يقين وبيّنة، وخاصة بعد ما جاءهم من ربهم شاهد ودليل وهو القرآن، الذي سبقه شاهد ودليل آخر وهو كتاب موسى عليه السلام، الذي أنزله الله كذلك إماماً هادياً ورحمة، فآمنوا وصدقوا »[26]، وقيل: « الهمزة للاستفهام التقريري، والفاء استئنائية، ومن موصولية مبتدأ خبره محذوف، تقديره: كغيره، أو كمن ليس كذلك »[27].

وقد ذكر في هذا التشبيه المشبه، وهو من كان على بينة من ربّه، بينما لم يذكر فيه المشبه به، وأداة التشبيه، ووجه الشبه، فتقدير المشبه به وأداة التشبيه: كمن لا دليل له ولا حجة ولا شاهد يؤكّد صحة ما يعتقده أو يقوله أو يفعله، بدلالة ما جاء في هذا الجزء من الآية، أما تقدير وجه الشبه الذي نفى الله سبحانه وتعالى المساواة أو المشابهة فيه، ولكون التشبيه جاء على عكس ما عليه الأصل في التشبيه، حيث جرى تشبيه الأعلى بالأدنى، بدلاً من تشبيه الأدنى بالأعلى، فإما أن يكون وجه الشبه صفة ذم، كالضلال، واتباع الهوى، وسوء العاقبة، أو يكون صفة مدح، كالهداية واتباع الحق، وحسن العاقبة، وذلك على اعتبار أن التشبيه مقلوب، وجاء وفق ادعاء المشركين على سبيل المبالغة أنهم الأعلى والمسلمون الأدنى، ومع ذلك فإن التقدير الأول هو الأقرب، لكون معظم الحديث في الآية التي منها هذا الجزء والآيات التي قبلها، والآيات التي بعدها، تتحدث عن ضلال المشركين، وأعمالهم المحبطة، وعاقبتهم السيئة.

وذكر بعض المفسرين تقديرات أخرى للمشبه به، وأداة التشبيه المحذوفين، وإن لم تكن في سياق تقديرهما، منها قول الخازن: « كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها وليس لهم في الآخرة إلا النار »[28]، وقول المراغي: « كمن يريد الحياة

26- التفسير الحديث، محمد عزة دروزة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1421 هـ - 2000 م، 516/3.

27- إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين الدرويش، اليمامة للطباعة والنشر دار ابن كثير للطباعة والنشر، دمشق، بيروت، ط8، 1422 هـ - 2001 م، 403/3.

28- تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل، الخازن (علاء الدين علي بن محمد)، ضبطه وصححه عبد السلام محمد شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1415 =

الفانية وزينتها الموقوتة، ويظل محروماً من الحياة العقلية والروحية التي توصل إلى سعادة الآخرة الباقية»[29]، وقول الجزائري: «كمن لا دليل له ولا برهان إلا التقليد للضلال والمشركين»[30].

وقد ذكر الله ﷻ المشبه به وأداة التشبيه في آية أخرى تناظر ما جاء في هذه الآية، وذلك في قوله جل وعلا: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ [محمد: 14].

النموذج الثالث

قال الله تعالى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: 9].

القنوت هو لزوم الطاعة مع الخضوع[31]، وجاء في القاموس: «القنوت الطاعة والسكوت، والدعاء، والقيام في الصلاة، والإمساك عن الكلام، وأقنت: دعا على عدوّه، وأطال القيام في صلاته، وأدام الحج، وأطال الغزو، وتواضع لله تعالى»[32].

وآناء الليل: «ساعاته، واحدها إنيٌ وإنىً، فمن قال إنيٌ فهو مثل نحيٌ وأنحاء، ومن قال إنىً فهو مثل معىً وأمعاءٌ»[33].

=

هـ - 1995 م، 477/2.

29- تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، خرج آياته وأحاديثه باسل عيون السود، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418 هـ - 1998 م، 302/4.

30- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، أبو بكر جابر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، توزيع دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1416 هـ - 1995 م، 530/2.

31- ينظر: معجم مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني (أبو القاسم الحسين بن محمد)، ضبطه وصححه وخرج آياته وشواهده إبراهيم شمس الدين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418 هـ - 1997 م، مادة قنت.

32- القاموس المحيط، الفيروز آبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب)، دار الجيل، بيروت، د. ت، مادة قنت.

33- لسان العرب، ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم)، دار صادر، بيروت، ط3، =

وقد روى القرطبي في معنى كلمة (قانت) أربعة أوجه: الأول: المطيع، والثاني: الخاشع في صلاته، والثالث: القائم في صلاته، والرابع: الداعي لربه، بينما روى في تعيين القانت ست روايات: الأولى: أنه الرسول ﷺ، الثانية: أنه أبوبكر، وعمر رضي الله عنهما، الثالثة: أنه عثمان ﷺ، الرابعة: أنه عمار بن ياسر، الخامسة: أنه صهيب، وأبو ذر وابن مسعود، السادسة: أنه مرسل فيمن كان على هذه الحال[34].

وروى ابن كثير ثلاثة أقوال في المقصود بـ(آناء الليل): الأول: جوف الليل، والثاني: ما بين المغرب والعشاء، والثالث: أول الليل وأوسطه وآخره[35].

ووصف الله ﷻ القنوت بأنه في آناء الليل، للدلالة على فضل صلاة الليل، وأنها أفضل من صلاة النهار، لكونها أقرب إلى القبول، وأبعد عن الرياء، حالتي السراء والضراء، وقدم السجود على القيام لكون السجود أدخل في معنى العبادة، ولكونه أقرب ما يكون العبد إلى الله ﷻ[36].

ومعنى الآية: أمن هو ملازم لطاعة الله، خاضع لمشيئته، يمضي ساعات ليله بين السجود والقيام في عبادة كاملة، من غير فتور ولا تقصير، عبادة تجمع بين الخوف من عذاب الآخرة، ورجاء رحمة الله الواسعة في الفوز بالجنة، كمن ليس كذلك ممن يمضي ساعات ليله في أعمال الشرك وارتكاب المعاصي، فكما لا يستوي العلماء الذين يعملون بمقتضى علمهم، والجهلاء الذين يعملون بمقتضى جهلهم، لا يستوي أيضاً المؤمن العابد المطيع، والكافر الضال العاصي، إنما يعظ ويعتبر أصحاب العقول الراجحة من المؤمنين العاملين بما علموا.

=

1414 هـ - 1994م، مادة أني.

34- ينظر: الجامع لأحكام القرآن، 209/15 - 210.

35- ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر)، تحقيق حامد أحمد الطاهر، دار الفجر للتراث، القاهرة، ط2، 1431 هـ - 2010 م، 69/4.

36- ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي (أبو الفضل شهاب الدين محمود)، ضبطه وصححه علي عبدالباري عطية، منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422 هـ - 2001 م، 236/12.

والتشبيه في الآية منفي بالاستفهام الإنكاري الذي يفيد النفي في (أمّـن) الـتي أصلها (أم) الـتي بمعنـى (بـل) وهمـزة الاسـتفهام، دخلـت علـى (مـن) الموصـولة فأدغمت الميم في الميم، فصارت (أمّن)، وذلك لنفي المساواة بين الإنسـان المـؤمن الملازم لطاعة الله، والإنسان الكافر الملازم لمعصيته[37].

فالمشبه مذكور في أول الآية وهو: من هو قانـت آنـاء الليـل سـاجداً وقائمـاً يحذر الآخرة ويرجو رحمـة ربـه، والمشـبه بـه وأداة التشـبيه محـذوفان، تقـديرهما: كمن يمضي ساعات ليله في أعمال الكفـر، وارتكـاب المعاصـي، دون خـوف مـن عقاب الله، أو رجاء لثوابه، دل عليهما سياق هذه الآية، والآية التي قبلها، ووجه الشـبه الذي نفى الله ﷻ المساواة أو المماثلة فيه، هو أيضاً محـذوف، تقـديره: في الضـلال والفجور وسوء المصير، أو في الهدى والثبور وحسن المصـير، وذلـك علـى اعتبـار أن التشبيه مقلوب.

وقيل في تقدير المحذوف: «كمن أشرك بالله وجعـل لـه أنـداداً»[38]، وقيـل: «كغيره أو كالكافر المقول له تمتع بكفرك»[39]، وقيل: كالكافر أو كمن كفر[40].

وقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فبالإضافة إلى كونه دليلاً علـى ما أرداه الله ﷻ من الحذف في الآيـة، علـى رأي العسـكري[41] هـو اسـتئناف بيـاني المراد به تفضيل الذين يعلمون على الذين لا يعلمون؛ لأن نفـي المسـاواة يكنـى بـه عن التفضيل[42]، وهو تفضيل ينطوي علـى مـدح العلـم ورفعـة قـدره، وذم الجهـل

37- ينظر: التفسير الوسيط، 201/11.

38- تفسير القرآن العظيم، 69/4.

39- اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل (أبو حفص عمـر بـن علـي)، تحقيـق عـادل أحمـد عبـد الموجود وآخرين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1419 هـ - 1998 م، 483/16.

40- ينظر: فتح القدير، الشوكاني (محمد بن علي بن محمد)، دار إحياء الـتراث العربـي، بـيروت، د. ت، 453/4.

41- ينظر: كتاب الصناعتين، ص188.

42- ينظر: تفسير التحرير والتنوير، 348/23.

ونقصه[43].

وذكر الزمخشري عند تفسيره لهذه الآية، أن الله ﷻ أراد بالذين يعلمون «العاملين من علماء الديانة كأن جعل من لا يعمل غير عالم، وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون العلوم، ثم لا يقنتون، ويتفننون فيها، ثم يفتنون بالدنيا، فهم عند الله جهلة، حيث جعل القانتين هم العلماء، ويجوز أن يرد على سبيل التشبيه؛ أي: كما لا يستوي العالمون والجاهلون، كذلك لا يستوي القانتون والعاصون»[44].

أما قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فهو على رأي ابن عاشور: «واقع موقع التعليل لنفي الاستواء بين العالم وغيره، المقصود منه تفضيل العالم والعلم»[45]، وعلى رأي محيي الدين الدرويش «هو استئناف مسوق لبيان عدم تأثير ما تقدم من قوارع وزواجر في قلوبهم لاختلاف عقولهم»[46].

النموذج الرابع

قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: 22].

شرح صدره: «بسطه بنور إلهي وسكينة من جهة الله وروح منه»[47]، والنور: هو الضوء المعين على الإبصار، وهو نوعان: «دنيوي وأخروي، فالدنيوي ضربان: ضرب معقول بعين البصيرة، وهو ما انتشر من الأمور الإلهية كنور العقل، ونور القرآن، ومحسوس بعين البصر، وهو ما انتشر من الأجسام النيرة كالقمر، والنجوم،

43- ينظر: تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل، القاسمي (محمد جمال الدين) ضبطه وصححه وخرّج آياته وأحاديثه محمد باسل عيون السود، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418 هـ - 1997 م، 282/8.

44- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمر)، اعتني به ورتب حواشيه محمد السعيد محمد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ط1، 2012م، 113/4 - 114.

45- تفسير التحرير والتنوير، 351/14.

46- إعراب القرآن وبيانه، 497/6.

47- معجم مفردات الفاظ القرآن، مادة شرح.

والنيرات»[48]، وهو في هذه الآية من الدنيوي المعقول بعين البصيرة.

وروى الجوزي أربعة أقوال في قوله: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ «أحدها: اليقين، قاله ابن عباس، والثاني: كتاب الله يأخذ به وينتهى إليه، قاله قتادة، والثالث: البيان، قاله ابن السائب، والرابع: الهدى، قاله مقاتل»[49].

والويل: حلول الشر، والويل: الحزن والهلاك والمشقة من العذاب، والويل: الهلاك يدعى به لمن وقع في هلكة يستحقها، وويل كلمة عذاب، وهي تطلق على وادٍ في جهنم، وقيل على باب من أبوابها[50].

والضلال: ضد الهداية، وهو العدول عن الطريق المستقيم، عمداً كان أو سهواً، يسيراً كان أم كثيراً، منه ما يكون في العلوم النظرية، كالضلال في معرفة الله ووحدانيته ومعرفة النبوة، ومنه ما يكون في العلوم العملية، كمعرفة الأحكام الشرعية[51]، وهو في هذه الآية من الضلال العمد الواقع في العلوم النظرية، ووصف بالمبين لشدة وضوحه في الموصوفين به، وهذا يؤيده ما قيل فيمن نزلت فيهم هذه الآية، فقد ذكر الواحدي أن الآية نزلت في حمزة وعلي، وأبي لهب وولده، فحمزة وعلي من شرح الله صدره، وأبو لهب وأولاده هم الذين قست قلوبهم من ذكر الله[52].

وفي الآية أربع استعارات؛ الأولى: استعارة شرح الصدر للإسلام، لقبول العقل هدي الإسلام ومحبته، والثانية: استعارة النور للهدي والتوفيق ووضوح الحق، والثالثة: استعارة على التمكّن من النور، والرابعة استعارة قسوة القلب لقلة تأثر

48- نفسه، مادة نور.

49- زاد المسير في علم التفسير، الجوزي (أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن)، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، ط4، 1407 هـ - 1987 م، 173/7.

50- ينظر: لسان العرب، مادة ويل.

51- ينظر: معجم مفردات الفاظ القرآن، مادة ضلّ.

52- ينظر: أسباب النزول، الواحدي (أبو الحسن علي بن أحمد)، تحقيق ودراسة كمال بسيوني زغلول، منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422 هـ - 2001 م، ص383.

العقل بما يسدى إلى صاحبه من الواعظ ونحوها[53].

ومعنى الآية: أفمن بسط الله صدره وأفسحه لتقبل الإسلام وتعاليمه، فهو على هدى وبصيرة ويقين من عند الله ﷻ، كمن ليس كذلك ممن ضاقت صدورهم وقست قلوبهم، فالحزن والهلاك وشدة العذاب لأولئك الذين غلظت وصلبت قلوبهم من سماع القرآن، أولئك في ضلال واضح عن السراط المستقيم.

والتشبيه في الآية منفي بالاستفهام الإنكاري في (أفمن) وهو استفهام يراد به نفي المساواة والمماثلة بين المؤمن والكافر والمهتدي والضال[54].

فالمشبه مذكور في الآية وهو: من شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه، والمشبه به، وأداة التشبيه محذوفان، تقديرهما: كمن ضاق صدره وقسا قلبه عن قبول الإسلام وتعاليمه، وبقي على كفره وضلاله، دل عليهما ما جاء في الآية الكريمة، ووجه الشبه الذي نفى الله ﷻ المساواة، أو المماثلة فيه، هو أيضاً محذوف، تقديره: في الضلال والجهل وعدم التمييز بين الحق والباطل والخير والشر، ويمكن أن يكون تقديره: في الهدى والعلم والتمييز بين الحق والباطل والخير والشر، وذلك على اعتبار أن التشبيه مقلوب.

وذكر المفسرون في تقدير ما وقع موقع المشبه به، وأداة التشبيه المحذوفين عدة أقوال متقاربة فيما بينها: فقال الزمخشري: «كمن لا لطف له، فهو حرج الصدر قاسي القلب»[55]، وقال الرازي: «كمن طبع على قلبه فلم يهتد لقسوته»[56]، وقال الألوسي: «كمن قسا قلبه، وحرج صدره، بتبديل فطرة الله تعالى بسوء اختياره، واستولى عليه ظلمات الغي والضلال، فأعرض عن تلك الآيات

53- ينظر: تفسير التحرير والتنوير، 380/23 - 381.

54- ينظر: التفسير الوسيط، 212/12.

55- الكشاف، 119/4.

56- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي (محمد بن عمر بن الحسين)، منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1421 هـ - 2000 م، 231/26.

بالكلية، حتى لا يتذكرها، ولا يغتنمها»[57].

ويطلق البلاغيون على مثل هذا النوع من الحذف، اسم الإيجاز بالحذف، ويعتبرون الحذف في الآية من قبيل الضرب الثالث من أضرب الإيجاز بحذف الجمل، وهو الحذف الوارد على شريطة التفسير، وتقريره «أن تحذف جملة من صدر الكلام، ثم يؤتى في آخره بما له تعلق به، فيكون دليلاً عليه، ثم إنه يرد علي أوجه ثلاثة، أولها أن يكون وارداً على جهة الاستفهام»[58].

وجملة ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ استئنافية أفادت وعيداً بالعذاب الشديد لمن قست قلوبهم من سماع القرآن، وقرئ (عن ذكر الله) بدلاً من (من ذكر الله)، والفرق بينهما كما يقول الزمخشري: «إذا قلت: قسا قلبه من ذكر الله، فالمعنى ما ذكرت، من أن القسوة من أجل الذكر وبسببه، وإذا قلت: عن ذكر الله، فالمعنى: غلظ عن قبول الذكر وجفا عنه»[59]، واعتبر الألوسي أن القراءة المتواترة أبلغ «لأن القاسي من أجل الشيء أشد تأبياً من قبوله من القاسي عنه بسبب آخر»[60].

أما جملة ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ فهي مستأنفة استئنافاً بيانياً، لبيان سبب فساد قلوبهم[61]، أو لبيان حالهم[62].

النموذج الخامس

قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: 24].

الفعل يتقي: من الوقاية، وهي حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره، ويتقي

57- روح المعاني، 246/12.
58- كتاب الطراز، ص248 - 249، وينظر: المثل السائر: 275/2.
59- الكشاف، 119/4.
60- روح المعاني، 246/12 - 247.
61- ينظر: تفسير التحرير والتنوير، 383/23.
62- ينظر: تفسير المراغي، 256/8.

بوجهه؛ أي: يجعله وقاية لنفسه[63].

وسوء العذاب: أشره وأشده وأفظعه[64]، وإضافة سوء إلى العذاب، من إضافة الصفة إلى الموصوف.

وفي الاتقاء بالوجه، ووصف العذاب بالسوء، دليل على هول يوم القيامة، وشدة عذابه، وفظاعته، وعدم القدرة على الوقاية منه، وقد اختلف المتأولون في الاتقاء بالوجه، فقال مجاهد: « يخر على وجهه في النار، وقالت فرقة: ذلك لما روي أن الكافر يلقى في النار مكتوفاً، مربوطة يداه إلى رجليه مع عنقه ويكب على وجهه، فليس له شيء يتقي به إلا وجهه، وقالت فرقة: المعنى صفة كثرة ما ينالهم من العذاب، وذلك أنه يتقيه بجميع جوارحه، ولا يزال العذاب يتزيد حتى يتقيه بوجهه الذي هو أشرف جوارحه وفيه حواسه، فإذا بلغ به العذاب إلى هذه الغاية ظهر أنه لا متجاوز بعدها »[65]، وقيل الاتقاء بالوجه كناية عن عدم الوقاية على طريقة التهكم أو التمليح، وهذا من إثبات الشيء بما يشبه نفيه[66].

ومعنى الآية: أفمن لا يجد ما يتقي به شدة العذاب وفظاعته عند ما يكب في نار جهنم، غير أشرف أعضاء جسمه، وأكثرها حساسية وتألماً من العذاب، وقد غلّت يداه إلى رجليه مع عنقه، كمن ليس كذلك ممن أمن العذاب، عندها يقال للمعذبين: ذوقوا جزاء ما كسبتم في الدنيا من أعمال الكفر والظلم والعصيان.

والتشبيه في الآية منفي بالاستفهام الإنكاري الذي يراد به النفي في (أفمن)[67]، وذلك لنفي المساواة بين من يلقى به في النار يوم القيامة ومن أمن العذاب.

63- ينظر: معجم مفردات ألفاظ القرآن، مادة وقى.

64- ينظر: الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، الكفوي (ابو البقاء ايوب بن موسى)، تحقيق عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1419 هـ - 1998 م، ص503، 519.

65- المحرر الوجيز، 528/4.

66- ينظر: تفسير التحرير والتنوير، 393/23.

67- التفسير الوسيط، 216/2.

فالمشبه هو من يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة، والمشبه به، وأداة التشبيه محذوفان، تقديرهما: كمن استبشر وجهه بدخول الجنة والنجاة من عذاب النار، دل عليهما سياق الآية، ووجه الشبه الذي نفى الله ﷻ المساواة أو المشابهة فيه، هو أيضاً محذوف، تقديره: في رفعة المنزلة وحسن الثواب.

وحذف المشبه، وأداة التشبيه، اللذين يمثلان المسند «مشعر بتعظيم المحذوف، وأنه أكرم على الله من أن يذكر في مقابلة هذا الشقي، وفيه أيضاً القصد إلى أن يتجه الهم كله إلى المذكور الذي يتقي بوجهه سوء العذاب، ليمتلئ القلب بصورته، وهو في النار فزع طائش لا يدري كيف يدرأ العذاب عن نفسه، فهو يتقي بوجهه، والوجه تسوؤه النار، والذي فيه نبضة من نفس وعقل، يتقي وجهه من النار، ولا يتقي بوجهه النار»[68].

وقد ذكر المفسرون في تقدير المحذوف، الذي يمثل المشبه به، وأداة التشبيه المحذوفين، أقوالاً متقاربة في المعنى، منها: «كمن هو آمن لا يعتريه مكروه، ولا يحتاج إلى الاتقاء بوجه من الوجوه»[69] ومنها: «كمن هو آمن يأتي يوم القيامة آمناً مطمئناً بعيداً عن النار وسعيرها»[70]، ومنها أيضاً: «كمن هو آمن لا يعتريه شيء من المخاوف أو المكروه، ولا يحتاج إلى اتقاء المخاوف، بل هو سالم من كل سوء، مطمئن في جنة الله»[71].

وقوله: ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ هو تهكم واستهزاء بمن ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي[72]، أو هو تبكيت وتوبيخ لهم[73].

68- خصائص التراكيب، دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط7، 1427 هـ - 2006 م، ص276.

69- تفسير أبي السعود، 252/7.

70- التفسير الوسيط، 216/12.

71- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر، دمشق، دار الفكر المعاصر، بيروت، إعادة طبع، 1418 هـ - 1998 م، 280/23.

72- ينظر: تفسير المراغي، 257/8.

73- ينظر: التفسير المنير، 282/23.

والتعبير عما هو واقع في المستقبل بصيغة الماضي، هو لتحقق وقوعه، والذوق وهو إحساس اللسان، مستعار لإحساس ظاهر الجسم، وجعل المذوق نفس ما كانوا يكسبون، بدلاً من جزاء ما اكتسبوه في الدنيا من الشرك والمعاصي، مبالغة تشير إلى أن الجزاء وفق أعمالهم، وأن الله عادل في تعذيبهم[74].

النموذج السادس

قال الله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ [الرعد: 33].

قوله (أفمن) هو واحد من الوجوه الثلاثة التي ورد عليها في حق الله تعالى في القرآن الكريم، وهو هنا للحفظ والرعاية[75].

والقيام في الآية، من القيام للشيء، وهو المراعاة للشيء والحفظ له، ومعنى قائم على كل نفس: حافظ لها؛ أي: القائم الحافظ لكل نفس، والمعطي لها ما به قوامها[76]، وقال البغوي في بيان معنى قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾؛ «أي: حافظها ورازقها وعالم بها ومجازيها بما عملت»[77].

والمعنى في هذا الشطر من الآية: أفمن هو خالق كل نفس وحافظها وراعيها، وعالم بأحوالها وأعمالها، ومآخذها بما جنت، ومثيبها بما أحسنت، كمن ليس كذلك مما لا حول له ولا قوة، ولا نفع ولا ضر، وأشركتموهم مع الله في الألوهية والعبادة، قل سموهم بأسمائهم أو أوصافهم أو أفعالهم، لتتضح سفاهتكم وضلالكم.

والتشبيه في الآية منفي بالاستفهام الإنكاري في (أفمن) وهو استفهام إنكاري بمعنى النفي، وإدخال الفاء قيل لتوجيه الإنكار إلى توهم المماثلة[78]، وذلك لنفي

74- ينظر: تفسير التحرير والتنوير، 394/23.
75- ينظر: بصائر ذوي التمييز، 47/2.
76- ينظر: معجم مفردات الفاظ القرآن، مادة قوم.
77- تفسير البغوي، 21/3.
78- ينظر: روح المعاني، 151/7.

التسوية[79]، أو المماثلة بين الخالق -جلّ وعلا- العالم بأحوال النفوس، وبين تلك الأصنام التي أشركوها مع الله في العبادة، وهي لا تسمع ولا تبصر، ولا تنفع ولا تضر[80].

فالمشبه مذكور وهو: من هو قائم على كل نفس بما كسبت، والمشبه به، وأداة التشبيه محذوفان، تقديرهما: كمن لا قدرة له على القيام بأي فعل ممن أشركوه مع الله في العبادة، دلّ عليهما ما جاء في هذا الشطر من الآية، ووجه الشبه الذي نفى الله ﷻ المساواة، أو المماثلة فيه، هو أيضاً محذوف، تقديره: في العجز وعدم القدرة على النفع والضر، فهذا المعنى هو الأعرف والأخص بالمشبه به، أما في حال اعتبار التشبيه مقلوباً، وذلك بالنظر إلى ما كان يدعيه المشركون على سبيل المبالغة بشأن الأصنام التي يعبدونها، فإن تقدير الوجه: هو في القيام على شؤون الخلق والقدرة على النفع والضر.

وقد ذكر المتأوّلون عدة أقوال متقاربة في تقدير المحذوف، فقيل: «كالأصنام التي يعبدونها لا تسمع، ولا تبصر، ولا تعقل، ولا تملك نفعاً لأنفسها ولا لعابديها، ولا كشف ضر عنها ولا عن عابديها»[81]، وقيل: «كمن ييأس كذلك من شركائهم التي لا تضر ولا تنفع»[82]، وقيل أيضاً: «كمن لا يحفظ ولا يرزق ولا يعلم ولا يجزي وهو الأصنام»[83].

ويمثل قوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ احتجاجاً على المشركين في إشراكهم بالله[84]، وعدل عن اسم الجلالة إلى الموصول، لأن في الصلة دليلاً على انتفاء المساواة وتخطئة للكفار في إشراكهم الألوهية لله تعالى، ونداء على غباوتهم والتعريض

79- ينظر: تفسير التحرير والتنوير، 149/13.
80- ينظر: التفسير الوسيط، 486/7.
81- تفسير القرآن العظيم، 762/2.
82- البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي (محمد بن يوسف)، دراسة وتحقيق وتعليق عادل أحمد عبد الموجود وأخرين، منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422هـ - 2001م، 384/5.
83- أيسر التفاسير، 31/3.
84- ينظر: الكشاف، 521/2.

بهم[85].

وقد حذف المشبه به، وأداة التشبيه، أو الخبر أو المسند، أو المعادل « تصريحاً في التوبيخ والزراية عليهم، على القياس الفاسد لفقد الجهة الجامعة لهما »[86]، وترك التصريح هنا جاء لأمرين: « الأول: ليستكمله المخاطب، أو القارئ المتدبّر بنفسه، الثاني: لعدم استحقاق شركائهم الذكر والمقارنة بالله الخالق الحكيم، الذي هو قائم على كلّ نفس بما كسبت »[87].

وجملة ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ استئنافية دلت على الخبر المحذوف، والإخبار عن سوء صنيعهم في الإشراك مع الله ما لا يصلح للألوهية[88]، قصد منه « زيادة توبيخهم، وتسفيه أفكارهم وعقولهم »[89].

أما قوله: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ فالمقصود به طلب تعيين حقيقتهم « وفي هذا تبكيت لهم وتوبيخ؛ لأنه إنما يقال هكذا في الشيء المستحقر الذي لا يستحق أن يلتفت إليه، فيقال له سمه إن شئت، بمعنى أنه أحقر من أن يسمى، وقيل المعنى صفوهم، وبينوا أوصافهم، بما يستحقون ويستأهلون به، ثم انظروا هل هي أهل لأن تعبد، وقيل المعنى سموهم بالآلهة كما تزعمون، فيكون ذلك تهديداً لهم »[90].

وعلى العموم، فإن الآية بمجملها، وإن دلت على نفي المماثلة، أو المساواة بين الخالق القادر -جلّ وعلا- وبين من أشركوه معه في العبادة والألوهية، فهي في الوقت نفسه تحمل في طياتها معاني الحجاج، والتعجب، والتبكيت، والتوبيخ، والتهديد.

أخيراً، ومن خلال هذا الشرح والتوضيح، فإنه يمكن لنا أن نلخص أهم النتائج التي تم التوصل إليها في النقاط التالية:

85- ينظر: تفسير التحرير والتنوير، 150/13.
86- إعراب القرآن وبيانه، 101/4.
87- البلاغة العربية، 102/1.
88- ينظر: البحر المحيط في التفسير، 384/5.
89- التفسير الوسيط، 486/7.
90- فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان، دار الفكر العربي، القاهرة، د. ت، 105/5.

1. التشبيه المقدّر، هو التشبيه البليغ الذي ترك فيه ذكر المشبه به مع دلالة الكلام عليه.

2. التشبيه المقدّر بصيغته التي جاء عليها في القرآن الكريم، هو أسلوب من التشبيه لا وجود له في كلام العرب، فهو من خصائص لغة القرآن، ووجه من وجوه بلاغته، وهذا يؤكد إعجاز القرآن، وعدم قدرة البشر على الإتيان بمثل جزء يسير منه.

3. يشترط في التشبيه المقدّر وجود دليل يدل على المحذوف، سواء ذكر هذا الدليل أم فهم من خلال السياق.

4. عدم عناية البلاغيين بهذا النوع من التشبيه، سواء من حيث عدم وضع مصطلح له يميزه عن بقية أنواع التشبيه، أو عدم وضع تعريف له يوضح معالمه ويحدد أركانه، أو من حيث دراسة نماذجه، وتحليلها، والاستشهاد بها، على أساس ما فيها من تشبيه، وليس على أساس آخر، ربما لكونه التبس عندهم بالاستعارة المكنية، للفارق الدقيق بينهما؛ لأن فيها « يحذف المشبه به ويرمز إليه بشيء من لوازمه »[91].

5. إن التشبيه المقدر في النماذج القرآنية المدروسة، هو تشبيه منفي بالاستفهام الإنكاري الذي تقدمه، وذلك لنفي المساواة، أو المماثلة بين أمرين.

6. وبما أن التشبيه المقدّر في هذه النماذج القرآنية منفي، عليه فإن وجه الشبه يكون أيضاً منفياً؛ أي: أنه يكون في معنى أو وصف لا يتساوى أو يتشابه فيه المشبه مع المشبه به.

7. يجوز في التشبيه المقدّر تشبيه الأدنى بالأعلى، أو العكس؛ أي: يجوز تشبيه الأعلى بالأدنى، على اعتبار أن وجه الشبه الذي نفى الله ﷻ المساواة أو المشابهة فيه، هو صفة ذم، أو على اعتبار أن التشبيه مقلوب.

91- البلاغة العربية في ثوبها الجديد، علم البيان، بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت، ط5، 1995م، ص109.

8. المشبه به، وأداة التشبيه المقدّران في التشبيهات المدروسة، هما من الناحية الإعرابية، خبر مقدّر لمن الموصولة الواقعة في محل رفع مبتدأ[92].

9. عدم التفات المفسرين إلى ما في هذه النماذج من تشبيه مقدّر، أثناء شرحهم وتحليلهم لها، وذلك على الرغم من وضوح التشبيه في تقديراتهم للمحذوف.

10. من أغراض التشبيه المقدّر، إشراك المتلقي في بناء الصورة التشبيهية، وشحذ ذهنه، واستثارة طاقته الفكرية، وحثه على التأمل والتدبّر، والوصول إلى المطلوب من خلال الدلائل والشواهد.

11. من أغراض التشبيه المقدّر كما جاء في النماذج القرآنية، المقارنة بين أمرين بأسلوب يغلب عليه طابع الاستفهام الإنكاري الذي حذف منه الخبر؛ أي: المشبه به وأداة التشبيه، لدلالة سياق الكلام عليهما، كي يدرك المتلقي ما بين الأمرين من فرق.

12. من هدي القرآن الكريم وعظمته، أنه يفسح المجال أمام العقل للتدبّر والتأمل واستخلاص النتائج، فهو يأتي «بأشياء تطلب التفكير والاستنباط، كي يتنبه الإنسان إلى أنه يستقبل كلام رب حكيم، وعليه أن يبحث فيه، ولذلك يقول سيدنا عبد الله بن مسعود ﷺ: (ثوّروا القرآن)؛ أي: أثيروه، كي تكشفوا ما فيه من كنوز»[93]، فإن أخطأ المجتهد فله أجر واحد، وإن أصاب فله أجران، والله الموفق إلى ما فيه الصواب.

92- ينظر: إعراب القرآن وبيانه، 403/3، 100/4، 265/6، 496، 506، 508.

93- تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم، قطاع الثقافة، مصر، د. ت، 7356/12.

المصادر والمراجع

كتاب الله العزيز، القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم.

1. أسباب النزول، الواحدي (أبو الحسن علي بن أحمد)، تحقيق ودراسة كمال بسيوني زغلول، منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422 هـ - 2001 م.
2. الإشارات والتنبيهات في علوم البلاغة، الجرجاني (محمد بن علي بن محمد)، تحقيق عبدالقادر حسين، مكتبة الآداب، القاهرة، 1418 هـ - 1997 م.
3. إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين الدرويش، اليمامة للطباعة والنشر دار ابن كثير للطباعة والنشر، دمشق، بيروت، ط8، 1422 هـ - 2001 م.
4. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، أبو بكر جابر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، توزيع دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1416 هـ - 1995 م.
5. الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني (جلال الدين محمد بن عبدالرحمن)، تحقيق ودراسة عبدالقادر حسين، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 1416 هـ- 1996م.
6. البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي (محمد بن يوسف)، دراسة وتحقيق وتعليق عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422هـ - 2001م.
7. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروز آبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب)، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت، د. ت.
8. البلاغة العربية في ثوبها الجديد، علم البيان، بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت، ط5، 1995م.
9. البلاغة العربية، عبدالرحمن بن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط1، 1416 هـ - 1996م.
10. تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي (محمد مرتضى الحسيني)،

تحقيق عبدالفتاح الحلو، راجعه مصطفى حجازي، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، 1406 هـ - 1986 م.
11. تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود (العماد محمد بن محمد بن مصطفى) دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط4، 1414 هـ - 1994 م.
12. تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل، البغوي (أبو محمد الحسين بن مسعود)، إعداد وتحقيق خالد عبدالرحمن العك. ومروان سوار، دار المعرفة، بيروت، ط4، 1415هـ - 1995 م.
13. تفسير البيضاوي المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي (ناصر الدين أبو سعيد عبد الله)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1408 هـ - 1988م.
14. تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، د. ت.
15. التفسير الحديث، محمد عزة دروزة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1421 هـ - 2000 م.
16. تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل، الخازن (علاء الدين علي بن محمد)، ضبطه وصححه عبد السلام محمد شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1415 هـ - 1995 م.
17. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم، قطاع الثقافة، مصر، د. ت.
18. تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل، القاسمي (محمد جمال الدين) ضبطه وصححه وخرّج آياته وأحاديثه محمد باسل عيون السود، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418 هـ - 1997 م.
19. تفسير القرآن الجليل المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي (أبو البركات عبد الله بن أحمد)، دار الكتاب العربي، بيروت، د. ت.
20. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر)، تحقيق حامد أحمد الطاهر، دار الفجر للتراث، القاهرة، ط2، 1431 هـ - 2010 م.

21. التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي (محمد بن عمر بن الحسين)، منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1421 هـ - 2000 م.
22. تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، خرج آياته وأحاديثه باسل عيون السود، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418 هـ - 1998 م.
23. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر، دمشق، دار الفكر المعاصر، بيروت، إعادة طبع، 1418 هـ - 1998 م.
24. التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998م.
25. الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد)، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1421 هـ - 2000م.
26. خصائص التراكيب، دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط7، 1427 هـ - 2006 م.
27. خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، عبدالعظيم إبراهيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1413هـ - 1992م.
28. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي (أبو الفضل شهاب الدين محمود)، ضبطه وصححه علي عبدالباري عطية، منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422 هـ - 2001 م.
29. زاد المسير في علم التفسير، الجوزي (أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن)، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، ط4، 1407 هـ - 1987 م.
30. شرح التلخيص، البابرتي (أكمل الدين محمد بن محمد)، دراسة وتحقيق محمد مصطفى صوفية، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ط1، 1392 هـ - 1983 م.
31. عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، السّبكي (بهاء الدين أبو حامد

أحمد بن علي)، تحقيق خليل إبراهيم خليل، منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422 هـ - 2001 م.
32. فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان، دار الفكر العربي، القاهرة، د. ت.
33. فتح القدير، الشوكاني (محمد بن علي بن محمد)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت.
34. في البلاغة العربية علم البيان، عبدالعزيز عتيق، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 1418 هـ - 1998 م.
35. في البلاغة العربية، علم المعاني، عبدالعزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1974 م.
36. القاموس المحيط، الفيروز آبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب)، دار الجيل، بيروت، د. ت.
37. كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، العسكري (أبوهلال الحسن بن عبدالله)، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط2، د. ت.
38. كتاب الطراز، المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، العلوي (يحيى بن حمزة بن علي)، مراجعة وضبط وتدقيق محمد عبدالسلام شاهين، دار الكتب العملية، بيروت، ط1، 1415 هـ - 1995م.
39. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمر)، اعتني به ورتب حواشيه محمد السعيد محمد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ط1، 2012م.
40. الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، الكفوي (أبو البقاء أيوب بن موسى)، تحقيق عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1419 هـ - 1998 م.
41. اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل (أبو حفص عمر بن علي)، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب

العلمية، بيروت، ط1، 1419 هـ - 1998 م.
42. لسان العرب، ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم)، دار صادر، بيروت، ط3، 1414 هـ - 1994م.
43. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير (أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد)، قدمه وعلق عليه أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ط2، د. ت.
44. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية (أبو محمد عبد الحق بن غالب)، تحقيق عبد السلام الشافي محمد، منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422 هـ - 2001 م.
45. المصباح في علم المعاني والبيان والبديع، ابن الناظم (أبو عبد الله بدر الدين بن مالك)، حقق الكتاب وقدم له بدراسة في تاريخ البلاغة عبدالحميد هنداوي، منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422هـ - 2001م.
46. معاني القرآن، الفراء (أبو زكرياء يحيى بن زياد)، تحقيق ومراجعة محمد علي النجار، دار السرور، د. م، د. ت.
47. معجم مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني (أبو القاسم الحسين بن محمد)، ضبطه وصححه وخرج آياته وشواهده إبراهيم شمس الدين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418 هـ - 1997 م.
48. مفتاح العلوم، السكاكي (أبو يعقوب يوسف بن محمد)، حققه وقدم له وفهرسه عبدالحميد هنداوي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1420 هـ - 2000 م.